المثل الأول

كمثل الذي استوقد ناراً

المثل الأول:
كمثل الذي استوقد نارا

والآن مع أول مثل ورد في القرآن، يقول الله تعالى عن المنافقين:

{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} [البقرة: ١٧ - ١٨].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هاتين الآيتين ما نصُّه:

(وتقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبّههم في اشترائهم الضلالة بالهدى وصيرورتهم بعد البصيرة إلي العمى، بمن استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله، وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها... فبينما هو كذلك إذ طُفئت ناره وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي وهو مع هذا أصم لا يسمع أبكم لا ينطق أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلي ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عِوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشاد، وفى هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع، وقال الرازي: والتشبيه هنا في غاية الصحة لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولا نوراً، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك فوقعوا في حيرة عظيمة، فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين، وقال تعالى:{ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ} أي أذهب عنهم ما ينفعهم وهو النور وأبقى لهم ما يضرُّهم وهو الإحراق والدخان{وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ} وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق،{لَّا يُبْصِرُونَ} بسبب ضلالتهم وعماية بصائرهم، كما قال

تعالى:{فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ} [الحج: ٤٦].

قال تعالى:{ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ} ولم يقل بضوئهم، لأن هذا النور ليس ذاتياً لهم وإنما اكتسبوه من الإيمان الذي تلبسوا به أولاً، كما أن نور القمر مكتسب من الشمس وليس ذاتياً كضوئها، ولذلك قال تعالى: {هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا} [يونس: ٥]، فهؤلاء المنافقون أطفأوا نور الإيمان بنفاقهم فعاشوا في ظلمات النفاق والشك والكفر ليسوا بخارجين منها فقال الله تعالى:{أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾} [الأنعام: ١٢٢]، هذا، والله تعالى يقول الحق وهو يهدى السبيل.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾} [العنكبوت: ٤٣].

* * *

المثل الثاني

كصَيّب من السماء

المثل الثاني:
كصيب من السماء

فهذا مثل آخر ضربه الله تعالى للمنافقين:

{ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ } [البقرة: ١٩ - ٢٠].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لنوع آخر من المنافقين، وهو قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون تارة أخرى، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم{كَصَيِّبٍ} والصيِّب: المطر نزل من السماء في حال ظلمات وهي الشكوك والكفر والنفاق، و{وَرَعْدٌ} وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع كما قال تعالى:{يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} [المنافقون: ٤]، وقال تعالى:{وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾} [التوبة: ٥٦]، - أي يخافون ويفزعون -.

والبرق: هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان، ولهذا قال تعالى:{يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ } أي ولا يجدي عنهم حذرهم شيئاً لأن الله محيط بهم بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادته، ثم

قال تعالى:{ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ } أي لشدته وقوته في نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان، قال ابن عباس:{ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ } أي لشدة ضوء الحق{كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ } أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه، وإذا عرضت لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين، وعن ابن عباس: يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به علي استقامة فإذا ارتكسوا منه إلي الكفر قاموا متحيرين.وهكذا يكون يوم القيامة عندما يُعطَى الناسُ النورَ بحسب إيمانهم، فمنهم من يُعطَى من النور ما يضيء له مسيرة عشرات الأميال وأكثر من ذلك وأقل من ذلك ومنهم من يُطفأ نورُه تارة ويُضيء أخرى، ومنهم من يمشي علي الصراط تارة ويقف أخرى، ومنهم من يُطفأ نوره تماماً فيتخبط في الظلمات وهم الخُلَّص من المنافقين الذين يقولون للمؤمنين يوم القيامة:{ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا} [الحديد: ١٣]، أما المؤمنون فإنهم: {نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا } [التحريم: ٨]، يقول تعالي:{وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ}.

قال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة علي كل شيء في هذا الموضع لأنه حذّر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلي إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير.

وقد ذهب كثير من المفسرين إلي أن هذين المثلين الأول والثاني مضروبان لصنف واحد من المنافقين، وتكون (أو) في قوله تعالي{ أَوْ كَصَيِّبٍ } بمعني الواو أو تكون للتخيير، أي اضرب لهم مثلاً بهذا وإن شئت فبهذا، وقال القرطبي: (أو) للتساوي، فعلى قوله يكون

المعنى: سواء أضربت لهم مثلاً بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم.

وقال ابن كثير: فجعل هذين المثلين لصنفين من المنافقين أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم كما ضرب المثلين في سورة النور لصنفين من الكفار: الدعاة والمقلدين في قوله تعالى{ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ} [النور: ٣٩]، إلي أن قال:{أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ} [النور: ٤٠] الآية، للدعاة الذين هم في جهل مركب، والثاني لذوي الجهل البسيط من الأتباع والمقلدين، وسيأتي الكلام عن المثلين من سورة النور في حينه إن شاء الله تعالى.

***

المثل الثالث

بعوضةً فما فوقها

المثل الثالث:
بعوضة فما فوقها

يقول الله تعالى:

{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦} [البقرة: ٢٦].

قال السُدّي:

لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين - يعني قوله تعالى{مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا} [البقرة: ١٧]، وقوله:{أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ} [البقرة: ١٩]، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله هذه الآية.

وقال قتادة:

لما ذكر الله تعالى العنكبوت والذباب، قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ فأنزل الله:{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ} أي: إن الله لا يستحيي من الحق أن يذكر شيأ مما قلّ أو كثر وإن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة: ماذا أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله هذه الآية، ومعنى الآية: أنه تعالى لا يستنكف، وقيل لا يخشى أن يضرب مثلاً ما بأي شيء كان صغيراً أو كبيراً.

(فما) هنا للتقليل أو نكرة موصوفة ببعوضة، ويجوز أن تكون (بعوضة) منصوبة علي نزع الخافض أي حذف الجار وهو هنا الإضافة بالظرف، وتقدير الكلام: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة إلي ما فوقها وهذا الذي اختاره الكسائي والفرّاء.

وقوله:{فَمَافَوْقَهَآ} فيه قولان: أحدهما: فما دونها في الصغر والحقارة، كما تصف شيئاً بالصغر، فيقول السامع: نعم فهو فوق ذلك، يعني أصغر من ذلك وهذا قول أكثر المحققين.

والثاني:{فَمَافَوْقَهَآ} لما هو أكبر منها لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة، وهذا قول قتادة واختاره ابن جرير، يؤيده ما رواه مسلم عن أم المؤمنين عائشة ﵂ أن رسول الله قال:«ما من مسلم يُشاك شوكة فما فوقها إلا كُتبت له بها درجة ومُحيت عنه بها خطيئة»[1].

خبر سبحانه في هذا المثال أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، فكما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذبابة والعنكبوت.

{فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ} أي يعلمون أنه كلام الرحمن وأنه من عند الله،{وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا} لا يفقهون ولا يفهمون وعلي ربهم ينكرون ضرب المثل بالبعوضة، فقال تعالى فيهم{يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا}،{وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ} قال ابن عباس:{يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا} يعني

(١) رواه مسلم عن أم المؤمنين عائشة.

المنافقين{وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا} يعني المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالة إلي ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً من المثل الذي ضربه الله،{وَيَهْدِى بِهِۦ} يعني المثل كثيراً من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيماناً إلى إيمانهم،{وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ} قال أبو العالية: هم أهل النفاق، وقال قتادة: فسقوا فأضلهم الله علي فسقهم.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾} [العنكبوت: ٤٣].

❊ ❊ ❊

المثل الرابع

قلوب أقسى من الحجارة

المثل الرابع:
قلوب أقسى من الحجارة

يقول الله تعالى:

{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾} [البقرة: ٧٤].

هذا المثل موجه إلي بني إسرائيل توبيخاً وتقريعاً لهم علي ما شاهدوه من آيات الله تعالي ومعجزاته العظيمة، يقول الله تعالى{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ} كله فهي كالحجارة التي لا تلين أبداً ولا علاج لقسوتها أو أشد قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما يتفجر منه الأنهار حيث تلين وتتفتت أمام الأنهار الجارية، وإن منها لما يتشقق فينبع منه الماء وإن لم يكن جارياً، وإن منها ما يهبط من رأس الجبل خشية لله تعالى، فالمعني: وإن من الحجارة لما هو ألين من قلوبكم القاسية وأنتم تُدعون إلي الحق والإيمان فتعرضون.

وقد زعم أُناس أن إسناد الخشية والخشوع إلي الحجارة من قبيل المجاز، قال الرازي والقرطبي: ولا حاجة إلي هذا، فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة، كما أسند إليها الإشفاق في قوله:{فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا} [الأحزاب: ٧٢]، وكما أسند القول والإتيان والطاعة إلي السماوات والأرض في قوله:{قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: ١١]، وأسند السجود للنجم والشجر في قوله:{وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ} [الرحمن: ٦]، وأسند التسبيح إلي كل شيء حتى الجمادات في قوله:{وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا

يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء: ٤٤]، ومن لين الحجارة أنها تحب المؤمنين وتسلم علي رسول الله ﷺ كل ذلك علي سبيل الحقيقة لا المجاز، ففي الصحيح، قال رسول الله ﷺ عن جبل أحد:«هذا جبل يحبنا ونحبه» وفي صحيح مسلم: قال رسول الله ﷺ :«إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن».

وقد اختلف علماء اللغة العربية علي لفظة (أو) في قوله تعالي: {فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} بعد إجماعهم علي استحالة كونها للشك، قال بعضهم هي بمعني الواو، فيكون المعنى: هي كالحجارة وأشد قسوة، واستشهدوا علي ذلك بقوله تعالي:{وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا} [الإنسان: ٢٤]، أي آثماً ولا كفورا، وبقوله:{عُذْرًا أَوْ نُذْرًا} [المرسلات: ٦]، أي ونذرا وقال آخرون: (أو) بمعني بل، فيكون المعني: هي كالحجارة بل أشد قسوة، ويؤيد هذا المعني قوله تعالى:{إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} [النساء: ٧٧]، أي بل أشد خشية، وقوله سبحانه: {وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [الصافات: ١٤٧]، أي بل يزيدون، وقال بعضهم: معني ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين إما أن تكون كالحجارة في القسوة، وإما أن تكون أشد منها قسوةً.

قال ابن جرير:

ومعني ذلك علي هذا التأويل: فبعضها كالحجارة قسوةً، وبعضها أشد قسوةً من الحجارة ورجّحه ابن جرير، قال ابن كثير: وهذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى:{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا} [البقرة: ١٧]، مع قوله:{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ} [البقرة: ١٩]، وكقوله:{وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ} [النور: ٣٩]، مع قوله:{أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ} [النور: ٤٠].

أي إن منهم من قلوبهم كالحجارة قسوةً، ومنهم من قلوبهم أشد قسوةً من الحجارة، هذا، وقد نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن مثل حال بني إسرائيل الذين نزل فيهم هذا المثل، وحذرنا أن تقسو قلوبنا كما قست قلوبهم فقال تعالى:{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾} [الحديد: ١٦].

أي: أما آن الأوان للمؤمنين أن تلين قلوبهم عند ذكر الله واستماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتسمع وتطيع، وتكف عن المعاصي وتقلع عن الذنوب التي تقسّيها وتُمرضها وتسوّدها بالران وتُصدئها بصدأ الغفلة والإعراض عن ذكر الله ولا يكونوا كأهل الكتاب الذين قست قلوبهم فكانت كالحجارة أو أشد قسوة.

وحتى لا نيأس من لين قلوبنا وخشوعها لذكر الله، فتح الله لنا أبواب الأمل فقال جل ذكره بعد آية المعاتبة السابقة مباشرةً من سورة الحديد: {ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾} [الحديد: ١٧].

فالله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ويفرّج الكروب بعد شدتها، ويحيي الأفئدة بعد موتها كما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ويولج إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، الحكم العدل في جميع الفِعال الذي هو لما يشاء فعّال.

{كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ} [محمد: ٣].

* * *

المثل الخامس

الراعي الشفيق

المثل الخامس:
الراعي الشفيق

يقول الله تعالى:

{ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ } [البقرة: ١٧١].

هذا مثل آخر للكافرين و{ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ } [النحل:٦٠].

قال القرطبي: شبّه الله تعالى واعظ الكفار وداعيهم وهو سيدنا محمد ﷺ بالراعي الذي ينعق بالغنم والإبل فلا تسمع إلا دعاءَه ونداءَه، ولا تفهم ما يقول هكذا فسره ابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي والزجاج والفراء وسيبويه، والمعنى: ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم، وقال ابن كثير:{ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ } أي فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها داعيها، أي دعاها إلي ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهم بل تسمع صوته فقط، والنعيق: زجر الغنم والصياح بها، يقال: نعق الراعي بغنمه ينعق نعيقاً ونُعاقا ونَعقاناً.قال الأخطل: انعق بها يا جرير فإنك منّتك نفسك في الخلاء ضلالا.

هذا وجه، والوجه الثاني لبيان هذا المثل ساقه القرطبي وابن كثير قال الأخير: وقيل: إنما هذا مثل ضُرب لهم في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئا، واختاره ابن جرير والوجه

الأول أولى لأن الأصنام لا تسمع شيئا لا دعاءً ولا نداءً، أما الغنم فهي تسمع دعاء الناعق ونداءه ولكن لا تفهم ولا تعقل ولا تدري ماذا يريد منها، يقول الله تعالى:{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ} أي صُمٌّ عن سماع الحق، بُكْمٌ لا يقولون به، عُمْيٌ عن رؤية الحق وطريقه المستقيم،{فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} أي لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه.

أقول: والدعاء للقريب والنداء للبعيد، قدّم الدعاء على النداء، ليكشف مدى حرصه ﷺ على هدايتهم فهو يدعوهم عن قرب ويتألفهم عن كثب كما يدعو الراعي غنمه وهي قريبة منه ليقدم لها الطعام والشراب ويصلح من شأنها، فإذا انصرفت وشردت بعيداً عنه، وأبت إلا الفرار منه وهو راعيها الشفيق ناداها بأعلى صوته وهتف فيها يحذرها الضلال ويخوفها الذئب، فلاتزداد منه إلا بعداً وإعراضا ولا تسمع إلا نداءً رفيقاً شفيقاً حانياً، ولكنها لا تفهمه ولا تعقله:{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} قال ﷺ :«إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» أي البعيدة الشاردة [1].

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾} [الإسراء: ٨٩].

❋ ❋ ❋

(١) رواه أبو داود والنسائي عن أبي الدرداء.

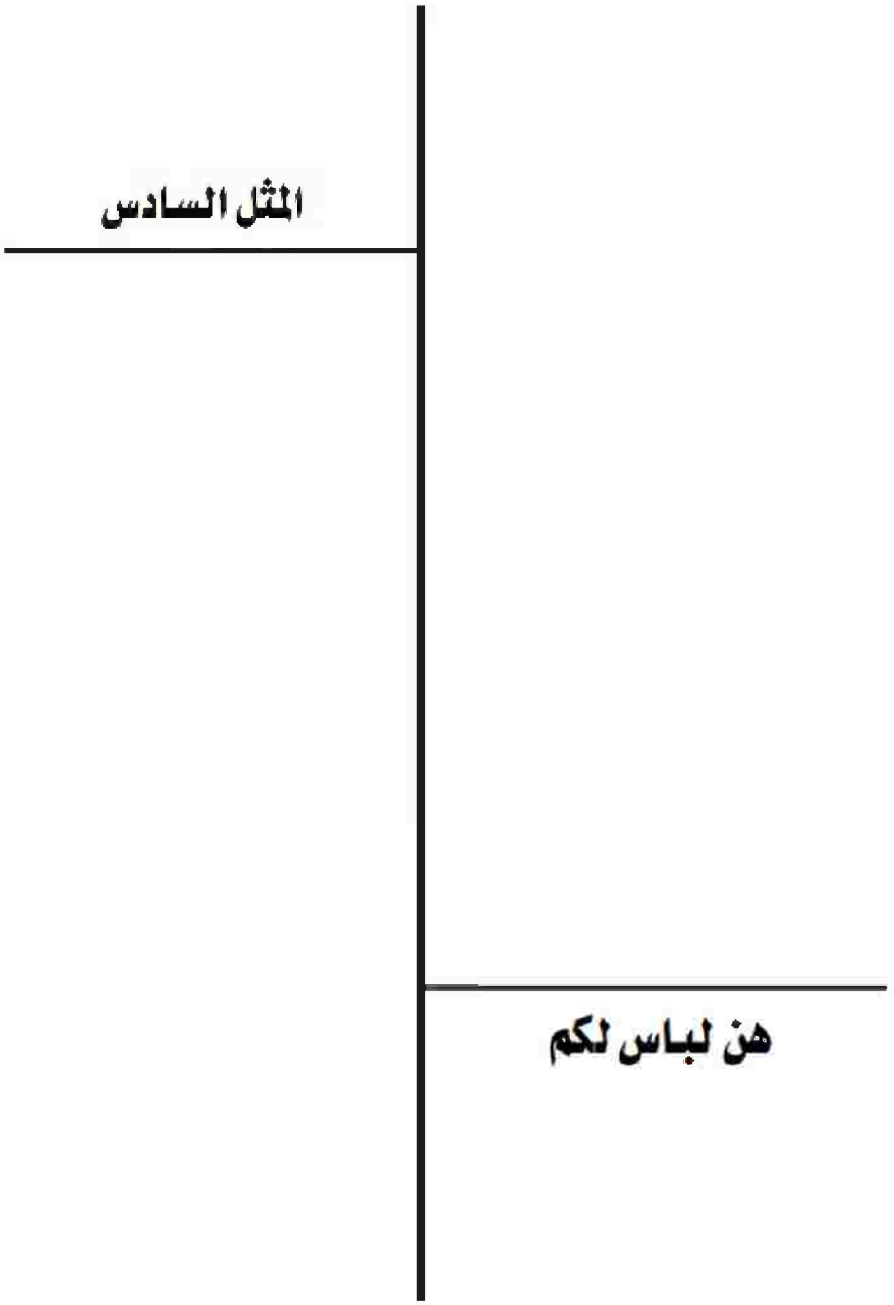

المثل السادس

هن لباس لكم

المثل السادس:
هن لباس لكم

يقول الله تعالى:

{أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} [البقرة: ١٨٧].

هذه الآية وإن لم تكن مثلاً صريحاً، إلا أن المعنى يصلح أن يكون مثلاً، والمعنى: إن مثل نسائكم بالنسبة لكم كمثل اللباس الذي تلبسونه فيستركم ويجملكم ومثلكم بالنسبة لنسائكم كمثل لباسهن الذي يسترهن ويزينهن ظاهراً وباطناً، والمقصود باللباس في الآية السكن، فالرجل يسكن إلي زوجته ويشعر معها بالسكينة، والمرأة تسكن إلي زوجها وتشعر معه بالطمأنينة.

قال محمد بن علي الشوكاني في فتح القدير: وقيل إنما جُعل كل واحد منهما لباساً للآخر لأنه يستره عند الجماع عن أعين الناس، وقال: وجُعل النساء لباساً للرجال والرجال لباساً لهن لامتزاج كل واحد منهما بالآخر عند الجماع كالامتزاج الذي يكون بين الثوب ولابسه.

وقال البيضاوي في أنوار التنزيل وأسرار التأويل:{هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ} [البقرة: ١٨٧]، استئناف يبين سبب الإحلال وهو قلة الصبر عنهن وصعوبة اجتنابهن لكثرة المخالطة وشدة الملابسة، ولمّا كان الرجل والمرأة يعتنقان - أي يتعانقان - ويشتمل كل منهما علي صاحبه شُبه باللباس.

قال الجعدي:

إذا مـا الضـجيع ثـنى عِطفهـا ::: تثنـت فكانـت عليـه لباسـاً

أو لأن كل واحد منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور.

ولي في هذا المثل عدة وجوه للشبه بين الزوجين واللباس فضلاً عن الستر كما تقدم:

الوجه الأول: الدفء فكما أن اللباس يعطي الإنسان الدفء فكذلك كل من الزوجين يعطي صاحبه الدفء والحرارة، فالرجل بدون زوجة محروم من الدفء الحسي والعاطفي، والمرأة بدون زوج مفتقرة إلي الدفء وحرارة العاطفة، ولكي تدرك ذلك قارن بين رجل ينام في فراش وثير دافئ وعليه غطاء وثير يشع دفئاً وحرارةً، ورجل آخر يعاني البرد وآلامه لأنه ينام دون فراش دافئ وليس عليه غطاء دافئ، فمثل الرجلين كمثل المتزوج وغير المتزوج، ونفس المثل ينطبق تماماً علي المرأة.

الوجه الثاني: الانتقاء والاختيار، فكما أن الإنسان ينتقي ثوبه ويحسن اختياره، ويظل يبحث ويبحث عن الثوب المناسب نوعاً وملمساً وجودةً ولوناً وسُمكاً ليناسبه صيفاً بلطفه ونعومته ورقته، وشتاءً بدفئه وحرارته، وطولاً واتساعا حتى يغطي بدنه، كذلك كلٌ من الزوجين عليه أن ينتقي زوجه ويحسن اختياره لينعم بنعومته ولطفه ودفئه صيفاً وشتاءً وفي كل الأحيان.

الوجه الثالث: تبادل المحافظة ودوام المخالطة فإن الثوب يحفظ لابسه من العري وانكشاف السوءة، ويحفظه من حر الشمس وبرد الشتاء وصاحب الثوب أيضاً يجتهد في المحافظة عليه من الدنس

والوحل والقذر والتمزق حتى يظل أطولَ مدةٍ نظيفاً سليماً، وكلما اتسخ غسله، وكلما خلَق عاد إليه قلبسه، ولذلك سمي ثوباً لأن صاحبه يثوب إليه أي يعود إلي لُبسه وهكذا يجب علي الزوجين - وهذا شأنهما غالباً - أن يحافظ كل منهما على الآخر ويحفظه من كل ما يشينه، وكذلك كلما ابتعد الزوج عن زوجته أو ابتعدت عنه ثابت إليه وثاب إليها وتعانقا وتلابسا لا يستغني أحدهما عن الآخر كما لا يستغني الإنسان عن ثوبه أبداً.

الوجه الرابع: الزينة والجمال: إن الثوب يزين لابسه ويجمله، تخيل نفسك رجلاً أو امرأةً مشيت بين الناس بدون ملابس أو حتى رآك الناس مرة واحدة دون قصد منك عرياناً، فكم تكون قبيحاً مُنَفِّراً، وكذلك الزوج بزوجته يكون جميلاً أنيقاً متعطراً متجملاً، وكذلك تكون الزوجة لزوجها ظاهراً بالتجمل والتأنق، وباطناً بالعفة والطهارة وغض البصر وإحصان الفرج.

أما الرجل بدون زوجة، والمرأة بدون زوج فحدث ولا حرج عن إهمال المظهر وتدنيس المخبر غالباً إلا ما رحم ربك، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول:«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[1].

* * *

(١) (رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود).

المثل السابع

نساؤُكم حرثٌ لكم

المثل السابع:
نساؤكم حرث لكم

يقول الله تعالى:

{نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾} [البقرة: ٢٢٣].

الآية وإن لم تكن مثلا صريحا إلا أن معنى المثل متضمن فيها.

والمعنى: مثل نسائكم بالنسبة لكم كمثل الحرث بالنسبة للزارع، فشبّه سبحانه وتعالى أرحام النساء بالأرض التي تُحرث، ونطفة الرجل بالبذرة التي تُلقى في الأرض وشبّه الولد الذي يخرج من الرحم بالزرع الذي ينمو وينضج ويكبر من البذرة التي بذرها الرجل في حرثه، ولما كان الأمر كذلك وجب إتيان المرأة في قُبلها لا في دُبرها، لأن القُبل موضع البذر وموضع خروج الولد وهو الصمام الموصل للرحم موضع الحرث، أما الدبر فلا ينطبق عليه ذلك، فجعل الله تعالى من الفطرة السليمة والشريعة القويمة استقباح واستقذار بل واستهجان وتحريم إتيان المرأة في دبرها، ولذلك قال الله جلّ وعلا في الآية السابقة:{فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ} [البقرة: ٢٢٢]، أي في القُبل، قال الشوكاني في فتح القدير: لفظ الحرث يفيد أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج الذي هو القُبل خاصة إذ هو مزدرع الذرية كما أن الحرث مزدرع النبات فقد شبه ما يُلقى في أرحامهن من النطف التي منها النسل بما يلقى في الأرض من البذور التي منها النبات، وقوله:{أَنَّىٰ شِئْتُمْ} أي من أي جهة شئتم من خلف وقُدّام

وباركة ومستلقية ومضطجعة إذا كان في موضع الحرث، وأنشد ثعلب:

إنما الأرحام أرضون لنا محترثاتُ ::: فعلينا الزرع فيها وعلى الله النباتُ

وإنما عبّر سبحانه بقوله:{أَنَّىٰ} لكونها أعم في اللغة من كيف وأين ومتى، أما سيبويه ففسرها هنا بكيف، وقد ذهب السلف والخلف من الصحابة والتابعين والأئمة إلى أنّ إتيان الزوجة في دبرها حرام، وروى مسلم وأبو داود عن جابر بن عبد الله ﷺ أن اليهود قالوا للمسلمين: من أتى امرأة وهي مدبرة جاء الولد أحول؛ فأنزل الله:

{نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ} فقال رسول الله ﷺ: «مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك في الفرج» وروى الإمام أحمد عن خزيمة بن ثابت ﷺ أن رسول الله ﷺ :«نهى أن يأتي الرجل امرأته في دبرها» وفي رواية قال:«استحيوا إن الله لا يستحيي من الحق لا تأتوا النساء في أعجازهن» وقوله تعالى:{وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ} أي من فعل الطاعات وترك المحرمات، قيل بابتغاء الولد، بالتسمية عند الجماع، ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :«لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقدّر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبدا»،«واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه» فيحاسبكم على أعمالكم{وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ} الممتثلين لما أمرهم، التاركين ما عنه زجَرَهم.

❊ ❊ ❊

المثل الثامن

سنابل البركة

المثل الثامن:
سنابل البركة

يقول الله تعالى:

{مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦١].

هذا مثل ضربه الله تعالى لمن ينفق ماله في طاعة الله وفي مرضاة الله وفي الجهاد في سبيله لإعداد العدة وتجهيز الجيوش المسلمة المجاهدة لتكون كلمة الله هي العليا.

والمعنى: مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل زارع زرع في الأرض حبة، فأنبتت الحبة سبع سنابل{فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ} فشبه المتصدق بالزارع وشبه الصدقة بالبذرة، فيعطيه الله بكل صدقة سبعمائة حسنة ثم قال تعالى:{وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ} يعني على السبعمائة، روى أبو حاتم وابن حبان وأخرجه ابن مردويه عن ابن عمر ﷺ لما نزلت هذه الآية:{مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ} قال النبي ﷺ :«رَبِّ زد أمتي» قال: فأنزل الله:{مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} [البقرة: ٢٤٥].

قال النبي ﷺ :«رَبِّ زد أمتي» قال: فأنزل الله:{إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: ١٠].

{وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ} أي بحسب درجة إيمانه واحتسابه وإخلاصه في إنفاقه في سبيل الله ومدى بعده عن الرياء والسمعة.

{وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} أي فضله أوسع وأكثر مما يُتصور، فلا يضيق عن أن يسع جميع خلقه ويزيد ويفيض، ويجازي المخلصين بسبعمائة ضعفٍ وزيادة، عليم بالمخلصين والمرائين خبير بمن يستحق ومن لا يستحق، سبحانه وتعالى.

قال ابن كثير: وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة.

{وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٥].

***